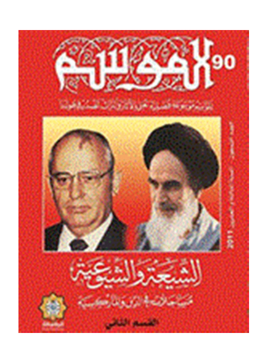


كلمة الدكتور الشيخ أحمد الوادلى (ارتجلها فى الحفل الأربعينى بدمشق)

پدیدآورنده (ها) : الوائلی، احمد

تاریخ :: نشریه الموسم :: السنة ۱۴۱۵ - العدد ۲۰

كلمة الدكتور الشيخ احمد الوائلي

(ارتجلها في الحفل الاربعيني بدمشق)

﴿ دموع الكلام ﴾

أحبتَنَا عندَ الثرى من جسومِكُم ... فتوحٌ وعندي من كرائمكم غَمْرُ
نشيدٌ بسمع الدهر غرُ فعالكم ... يردده من كلِ صالحةٍ ثغرُ
أرى الموت يحييكم وبعضُ الذي مشوا على ... الارضِ لو فكرتْ يمشي بهم قبرُ
يشدُ بهم للطين سودَ فعالهم ... ويسمو بكم للنورِ أمثلةٌ غرُ
كرائمُ أعمالٍ وزادٌ من التقى ... وفيض من الاصلاح هذا هو العمرُ
رأيتُ الغنى فكراً يعيش وغيرهُ ... وإنْ ملأ الآفاقَ من ذهبٍ فقرُ
فما ماتَ عيسى وهو يفترش الثرى ... ولا عاش قارون وأبوابه تبرُ

لقد حاولت أن أسكبَ مشاعري على الورق ولكنني أبيت أن أكبّل هذه المشاعر الدافقة بالقلم والورق وارتأيت أن أرسلها عفوَ القريحة والخاطر.

ويحَ التراب، ويحَ التراب لقد استأثر بأحبائنا، واقتلع كل نبتةٍ في واحةِ حياتنا فحوّلها الى صحراء يلفها الجدب وتطغى عليها الوحشة، ولم يبقى لنا إلا التلفت يميناً وشمالاً للبحث عن واحة نفيءُ اليها، وحينما لا نجد، نعود أدراجنا وفي القلب لوعة، وفي النفس حسرة، وليس إلا العيش في الذكريات والمرور على قبور الاحبة نتلمس عندها السلوة، ونتسمع أصداء الذكريات، ونعيش عالماً متخيلاً، نفرّ اليه من قسوة الواقع.

إنَ قبرَ الحبيبِ دارٌ وداراً ... ليسَ فيها الحبيب قبرٌ كئيبَ

أجل إن الثرى يشدنا بقوة الى دنيا أحبائنا الذين سكنوه، ولولا ما ندب الله اليه من الاعتصام بالصبر والسلوى لتمزقت صدورنا من زخم المشاعر الحزينة. فإنا لله وإنا اليه راجعون.

تقودني الذكريات في موقفي هذا الى بداية تعرفي على أبي موسى تغمده الله برحمته، وترجع هذه البداية الى أوائل الستينات، وكنت يومها بالتحديد في الحسينية الخزعلية بالكويت، وأنا أتهيء للمحاضرة، دخلت الى المجلس عِمَةٌ سوداء، وشيبة ناصعة، وكيان وقور، تلوح عليه مخائل الاتزان. فسلّم، ولم ينتبه له الحاضرون لأنه غريب، وربما حسبوه من بعض من يفد للبلد وهم كثير، فانتفضت له قائماً، ووسّعت له الى جانبي، وأقبلت عليه مرحبا. ولم ألبث أن عرفت من هو، وقضينا الليلة معاً على ما أذكر، ثم تواصل لقائنا لمدة ثلاثة أيام.

رحل بعدها الى العراق أو الى البحرين، وعندما عدت للعراق استئنفنا التواصل، فكان إذا جاء للنجف يتفضل بزيارتي، ونجتمع لليلة أو أكثر، وقد أراه في بعض الزيارات عند مرقد الحسين عليه السلام.

ومرت الأيام، وقدّر له أن يستقر في مدينة بلد، ممثلاً للسيد الحكيم قدسَ سره، وقد بنى هناك جامع، وعند كمال الجامع فوجئت به يطلب مني افتتاحه والقراءة فيه ولو لليلة،

واستجبت، وتوجهت بالموعد الى بلد، وكانت ليلة من ليالي العمر لا أنساها، فقد احتفل بي وجها باسماً، وخِواناً كريماً، ونديّاً من نوادي العرب بما تحمل من خصائص، ومجلساً مسلماً حُشِدَ بضروب من الفكر والمعرفة.

وانتهت الفترة وعدت الى أهلي - وكنت في تلك السنين أقضي شهر رمضان المبارك في بغداد للقراءة في جامع الخلاّني، وكنت أحضر قبل أيام من الشهر المبارك، أقضيها ببغداد، فكان سقا الله ثراه يزورني، ونجلس معاً في عشبة خضراء بداري بالكاظمية، نفترش الساحة، ونتقاسم وجبة بسيطة، ونتبادل همومنا وما عندنا من مشاكل ومن آلام، وكنت ألمس فيه الشخص الوفي، والروح السليمة، والانسان المتواضع، والعقل الذي كان ينظر الى أبعد من الحاضر، فكنت آنس بصحبته، وكنت أتغذى معه مما كنا نتطارحه من أفكار ومن آراء، وكنت أرى في جميع ذلك نضجاً لا مبالغة فيه. وكان يعود بعد صلاة العشاء الى بلد، وقد عودني أن يرسل لي عنباً ورماناً من بلد أقوم بتوزيعها على اقاربي هناك، واذا تعذر عليه المجيء بها يُهاتفني من بلد. ومرت أيامنا حافلةً بما تحمل من عواطف ومودة ومشاعر طاهرة واضحة كانت تشدنا الى بعضنا يوماً بعد يوم.

وحدث ما لم يكن بالحسبان، وتلبدت الأجواء بالعراق، وأغتيل البلد اغتيالاً مروعاً، فغرق في الدماء والمحن، وصودرت بقية الحريات التي كان يتمتع بها، ولوحت لنا النذر تدفعنا الى النجاة. وخرجنا عن الوطن الجريح وتركناه ينوء بآلامه، وتركناه يغرق في دمائه، وخرجنا لنكون ألْسنة معبرة عما يجري فيه لنحاول أن نعكس مأساته في الخارج، ولنضع أيدي الناس على ما يجري في هذا البلد الذي كان واحة الفكر الاولى، والذي كان موئل المجد الأول، والذي كان مورد الثروة والغنى الاول، وكيف انتهى به الأمر الى مأساة لايعرف لها التأريخ مثيلا. وشاءت الأقدار أن يذهب جنوباً، وأذهب شمالاً، لفترة عاد بعدها فالتحق بهذا البلد الحبيب، بدمشق.

وعدنا الى تواصلنا، كان يزورني وأزوره، ولايبرح أحدنا عن الآخر، نلتقي ونتطارح ونتبادل الآراء، وأرى به رجلاً يساير آلام بلده بهدوء ويضع يده على الجرح بألم ويشعر بأنه لاطاقة له على عمل أكثر من ذلك، وكان يقول لي، وأقول له، أن مجرد خروج هذه الارقام من بلدنا، الارقام التي على هذا النحو الذي هو عليه، والذي غيره عليه هي صيحة في وجه الدكتاتورية والباطل، هي صيحة في وجه التحدي، هي صيحة في وجه الوحشية التي أنشبت مخالبها بهذا البلد، كنا نتطارح ذلك ونحتمل آلامنا بجلد، وبصبر، ولاتند لنا دمعة.

حتى إذا أُختير لتمثيل المرجعية من النجف في دبي. كنت معه على اتصال، ففي كل شهر من شهور رمضان المبارك نجتمع هناك، حيث يقوم باداء وظيفته الدينية، يؤم المصلين، ويجيب على الاسئلة في الفروع الشرعية، وحيث أقوم هناك بوظيفتي في محاضرات شهر رمضان. وكنت على علم بأنه مصاب بمرض قرر معه الاطباء قبل أكثر من ثمان سنوات بأنه لايعيش اكثر من أيام معدودة، ولكن الله عز وجل متعه بعافية استمرت لفترة تقرب من التسع سنوات.

ثم أخذ المرض يشتد عليه فأتعب قلبه واضطره للرجوع لأهله لبضعة أشهر قضاها بين

الدار والمشافي، حتى وفد على الله تبارك وتعالى في نهاية هذه الحياة الحافلة بالخير وبالبر وبالتقوى.

لقد أخذ القبر أبا موسى، أخذه جسداً ولم يأخذه من مشاعرنا. ولقد عاش بمشاعرنا بما حمل من ملكاتٍ كريمةٍ لاينالها الموت. والملكات وإن كانت تقوم بالجسد، ولكنها تعيش في وعاء الذكرى، ولاتندثر، ولقد كانت له حصة كبيرة، **أولها**: نفس كبيرة ما رأيتها تحقد على انسان حتى ولو اختلفت معه، وأقسى ما تقابل به من قاطعها، أن تتألم لانها فقدت صديقاً كان يمكن أن لايفقد، فإذا زاد على ذلك بكلمة عتب لينة أو بشكوى مما قاساه منه لا غير.

وثانيهما: لسان عف يترفع عن كلمة بذاء أو نهش عرض انسان، وإن نَمّ ذلك فإنما ينمُّ عن سيطرة الايمان على النزعات، وإلا فالانسان يغضب إذا أُغضِبْ. حاشا أهل الايمان وأهل التقوى، وكان منهم.

وثالثهما: طهر في النفس يدفعه الى نسيان ذاته، وإلا غسل ما قد يحدث من سوء تفاهم بينه وبين أحد أصدقائه بنبع من التسامح. وكم من مرة كان يحدث ما بيننا ما يترك برودة في أجوائنا، فأفاجأ به يطرق الباب ويدخل، وكأن لم يكن هنالك شيء، ويقول اشتهيت اليوم أن أشرب عندك الشاي. أو يقول مالك حرمتني من لقاء أتوق اليه. ثم لايلبث أن يشفع مجيئه بكلمة من كلمات المودة والحب، فنندمج معاً في عواطف غاية في الصفاء والمودة، وإذا خرج شيّعته وأنا أرمقه بعيني إكباراً، وأحمل له في نفسي شعوراً بالتعاطف وبالامتنان لهذه المبادرات.

ورابعها: تواضع لاحدود له، يتجلى في التلقائية بالسلوك حركة وتعبيراً، وبالمبادرات الى ارضاء اخوانه الى درجة تؤلمني أحيانا، إي والله، فكم من مرة انحنى ليقدم لي حذائي حتى صحت أكثر من مرة ان هذا العمل لايرضيني ولايسعدني، فيقول ولكنه يرضيني ويسعدني، ثم لايلبث أن يعقّب على هذا العمل برواية أو حادثة عن بعض رموزنا التي نحترمها، مما يشكل موقفاً مماثلاً لموقفه هذا، وكأنه يحرص على اعطائي درس أخلاقي عملاً وقولاً.

وخامسها: مرح او طلاقة وجه في السراء والضراء، نابع من رضىً بما تجري به الأقدار، وإذا مرت عليه الكآبة، فانما تمر مرور سحابة الصيف لاتلبث أن تنقشع، ليعود بعدها الى طلاقة الوجه.

ثم بعد ذلك سماحة نفس في العسر واليسر، لاتظن بما عندها، ولاتحسب حساباً فيما تعطي إلا حساب والتماس وجه الله عز وجل، وقد يأخذ هذا الاحسان منحىً غير متوقع، كأن يتصدق عن اخوانه وربما باسم اخوانه. ولقد قال لي، والله عز وجل يعلم ـ والله يا شيخ أحمد أنا أتصدق عنك دائماً ـ ولك أن تتصور كم يزرع مثل هذا الفعل من جميل في نفسي، وفي نفوس إخوانه؟ وكم يفتح له قلوبهم؟ هذه الكرائم يا أبا موسى بالضميمة الى صلتك مع الله فيما تمارسه من طاعة، هي ذخائرك عند الله، وهل هناك ذخيرة أنفع من الذخائر عنده. ولك بعد ذلك ذرائع تعبّد دربك، وتؤنس وحشتك، وتنتهي بك الى مقعد صدق. وأهمها فيما أرى ثلاث:

الأولى: مسيرة طويلة في خدمة أبي الشهداء، واجتلاء مواقفه، ونشر مبادئه، والحرص على أن تكون ممن يمتهن خدمته على منابر ذكراه، وفي محافل عزائه، ولقد سمعت منك أكثر من مرة وأنت تقول، لو قدّر لي أن أخيّر بين أن أكون مرجعاً أو خادماً للحسين لاخترت خدمة الحسين.

لقد يممت طريقاً لاتضل به، وانتجعت سيداً لاينساك في دنياك وآخرتك. ولعمري أنه الفوز العظيم الذي يتوق اليه من يحمل الحسين شعاراً، ومن يتمنى أن يسلك في عداد من يُحْسبُ عليه.

والثانية: قيامك بمهام ممثل المرجعية، قياماً حسناً وعفّاً، يترفع عن الاسفاف، ويتكرم عن الامور الصغيرة، وقد ذاب في مشاعر القاعدة، فاستوجب حبها وتكريمها، وحاز ثنائها، ولبّى مطالبها في حاجاتها الشرعية، واعرافها الاجتماعية. وليس من السهل مع اختلاف المشارب، وتنوع المنازع أن يخطأ الانسان أو أن يحظى الانسان بمحصلة من القبول كما حصلت عليه، وذلك ما شهد لك به كل من عرفك، وذلك ما انعكس أيضاً في مشاعِر الناس اتجاهك يوم سمعوا نعيك، فآلمهم فقدك، وطفح على ألسنتهم الثناء عليك، والذكر للانسان عمر ثان.

والثالثة: حصيلتك العلمية، وقلمك النافع، والذي وفق لاختيار قنوات تتصل بآل محمد فكراً وفقهاً وأدباً. لقد دأبت وتعبت وأخرجت هذه الموسوعة التي هي موضع اعتزاز والتي تسمي بمصادر نهج البلاغة، وفي الشروح الفقهية، والتحقيقات في الأخبار والتأريخ، والترضّب من نبع مُذال من أدب الامام أمير المؤمنين سلام الله عليه، اغترف منه المتنبي وغيره، وفي سائر ما كتبت من نافع ومفيد سيبقى لك أثر من الآثار الناطقة بالفضل.

لقد كانت مسيرتك على قصر النوى، ابتداءً من الصفر، وانتهاء بما انتهيت اليه، وفي كل ذلك كنت لاتنسى إخوانك المعوزين، كنت معطاءاً، كنت لاتظن على اخوانك بما تحصل عليه ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾، لقد كنت في ذلك مواسياً لاخوانك، وحتى بالقليل، لأنك تأدبت بآداب أمير المؤمنين صلوات الله عليه الذي يقول (الحرمان أقل من القليل)، فكنت تعطي وإن اشتدّ عليك شظف العيش، وكنت تواسي اخوتك، وكنت تجود بما تقدر عليه.

هذا بعض ما تحمله من زاد في مسيرتك الى الله، فنم أبا موسى مطمئناً في كنف آل محمد، ولئن بَعُدْتَ عن تراب كنت تتوق اليه، فأنت بتربة من سنخ ذلك التراب. سعدت بالانتماء لعقيلة من عقائل آل محمد، ولئن كان لك في تربها مثوى، فلك في مشاعرنا مثوى لايفرغ يوماً من الأيام ومهما طالت الأيام أو قصرت فسنلتقي مع أحبتنا في فناء أبي الشهداء، فاقرأ أحبتنا السلام، والتمس لنا في ذلك الظل الوارف، والفناء الكريم، مقعداً حيث أئمتنا الأطهار، وسادتنا الأبرار، والى أن نلتقي سنبقى نستمطر شآبيب الرحمة على قبرك، ونستعيد محاسنك، ونسترجع ذكرياتنا الثرية معك، وليس لنا إلا الرضا بما قدر الله تعالى، وإلا العزاء بقوله تبارك وتعالى: ﴿الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا اليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة﴾. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.